قراءة تحليلية في وثيقة تاريخية جديدة حول خلفيات انتقال الحمّاديّين من القلعة إلى بجاية

د. الرزقي شرقي
جامعة تلمسان، الجزائر.

مقدمة :

إذا ما استثنيت الرّواية التّاريخية التّي تفرّد بها ابن الأثير "أبو الحسن بن مكرم"، المُتوفّى سنة (630هـ / 1232م) عن بقية المؤرّخين العرب خلال القرون الوسطى ؛ والتّي مفادها أنّ بناء مدينة بجاية من قِبل الحمّاديّين، مردّه إلى شحنة السّخط والانتقّام العارمة، التّي كان الحمّاديون يضمرونها لبني عمومتهم الزّيريّين، ولاسيما في عقب وقعة "سَبيبة"[1] سنة (457هـ / 1064م)[2]، وكذا تعطّشهم الشّديد لمداهمة عاصمة خصومهم الأزليّين، مدينة المهدية من عرض البحر، ومحاولة دكّها، وسحقها من الوجود كلّية، بعدما استحال عليهم الظّفر بها من الجهة البرّية لاعتبارات تحصّينية طبيعية خالصة[3]. فإنّ بقية روايات المصادر التّاريخية الأخرى، تُجمع على أنّ سبب رحيلهم من القلعة في تجاه بجاية، قد كان قَصْرا ؛ ومردّه في المقام الأوّل والآخر إلى تشديد الخناق عليهم من قِبل القبائل العربية[4] النّازحة وقتها من المغرب الأدنى (القطر التّونسي)، من غير أن يستدلّون على حكمهم القاطع بأيّ دليلٍ واضحٍ[5].

وإذا كانت هاتان الرّوايتان التّاريخيتان، المتعارضتان من حيث الشّكل حول سبب رحيل الحمّاديّين من القلعة إلى بجاية، فإنّهما تتفقان على أنّ الدّافع، دافع حربيّ واحد في المقام الأوّل، بصرف النّظر إن كان لجوءً اضطراريا من زحف الأعراب الذي أتى على الأخضر واليابس، على حدّ تصويره من قبل بعض المصادر العربية ؛ أو هو توغّل إستراتيجيّ لمقارعة بني عمومتهم الزّيريّين، ومحاولة أخذهم من حيث لا يحتسبون.

إلاّ أنّ تصفّح مراسلة تاريخية جديدة، لم يسبق التّطرّق إليها، من قبلُ، في هذا الشّأن، والتّي يكون الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين" (465– 500هـ/ 1073– 1106م)، قد بعث بها إلى نظيره الحمّادي "النّاصر بن علناس" (454- 481هـ/ 1062-1088م)، تعطي توضيحا، وتفسيرا مُغايرا حول هذه النّقطة الغامضة في تاريخ الدّولة الحمّادية بالمغرب الأوسط حتّى اليوم. فأين مكمن الحقيقة من كلّ ذلك إذن؟.

1). نصّ الوثيقة[6]

"ورد كِتابك الذي أنفذته من وادي مِنَى، مُنْصرفك من الوجهة التّي استظهرت عليها باضدادك[7] ؛ وأجحفت فيها بطارفك، وتلادك، وأخفقت من مطلبك ومرادك ؛ فوقفنا على ما فيه، وعرفنا المُعرّج به، والمشار إليه فيه. ووجَدْناك تتجنّى، وتُثرّب على من لم يستوجب التّثريب، وتجعل سيّيئك حسنا، ومُنكرك معروفا،

وخطأك صوابًا بيّنًا، وتقضي لنفسك بفَلَج الخصام، وتولّيها الحجّة البالغة في جميع الأحكام ؛ ولم تتأوّل أنّ وراء كلّ حُجّة أدليتها ما يُدحضها، وإزاء كلّ دعوة أبرمتها ما ينقضها، وتلقاء كلّ شكوى صحّحتها ما يمرِّضها، ولولا استنكاف الجدال، واجتناب القيل والقال، لنصّصنا فصول كتابك أوّلا، وتحرّيناها تفاصيل وجملا، وأضفنا إلى كلّ فصل ما يبطله، ويخجل من ينتحله، حتّى لا يدفع لصحّته دافع، ولا ينوء عن قبول أدلّته رَاءٍ، ولا سامع، ولا يختلف اعترافًا به دانٍ، ولا شاسع.

... وننشدك اللّه الذي ما تقوم السّماء والأرض إلاّ بأمره : ألم تكن عندما نزغ الشّيطان بينك، وبين أبي عبد اللّه محمّد بن يوسف رحمه اللّه[8]، وتفاقم الشّأن، قد توفّر منّا على ما كان بالحال من إقلاق، وتأخّرنا عمّا كانت النّصبة تستقدم إليه من بدار أو سباق، ولم نمدّ الجهة حقّ مدادها، ولا كثّرنا فوق ما كان يلزم من جماهير أعدادها، ولا عدَلنا عن جهاد المشركين، ولا اقبلنا إلاّ على ما يحوط حريم المسلمين. رجاء أن يثوب استبصار، أو يقع أقصار.

وأنت خلال ذلك تحشد، وتقوم بحمية، وتقعد، وتبرق غضبا، وترعد، وتستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقرب. فتعطيهم ما في خزائنك جُزافا، وتنفق عليهم ما كنزه أوائلك إسرافا، وتمنح أهل العشرات مئين، وأهل المئين آلاف. كلّ

ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تعصّبهم لك، وتألّبهم، وتعتقد أنّهم جُنَّتك من المحاذير، وحُماك دون المقادير.

ونحن أثناء ما فعلت، وخلال ما عقدت وحللت، نؤمّ العدوّ - قصمه اللّه- فَنُجْبِهه، ونكافحه. فنقعده، ونناطحه، ونتحيّنه من أقطّاره. ونغزوه بدءً وتعقّيبا في عقر داره إلى أن استجمت أخيرا، واستجشت، وترجّعت إلى عرفانك، واجهشت، ولولا مالك الذي ثمّدوه، وشارفوا إلى أن يستنفذوه ما أووا لشكواك، ولزادوك ضغثا على إبالة بلواك ؛ وإنّك لَمتداوٍ منهم بسُمّ، ومستريح إلى غمّ ؛ فبلغت معهم ما بلغت، وأرغت بهم ما أرغت، واستقبلتنا بما اثبت عن العدوّ. ولقد أخذناه بمخنقه، وأضفنا أنشوطة وهق الخزيّ على عنقه، وأشفى على انقطّاع ذمائه[9]، ورمقه ؛ ففرّجت عنه كربة لم يظّنها تَفْرج، ونهجت له منها وجه مخلص، لم يحسبه ينتهج، وأخليْت وجهه لأذى المسلمين، يبدؤه ويعيده، وبسطت فيهم يده، وكانت في جَامِعة تُقْصره عما يريده.

ولو أنّ صاحب رومه (كذا) المشتمل معه بعباءة الكفر، والشّرك[10]، المنتحل ما ينتحله من كلمة الزّور والإفك، مكانك من جوارنا، ويصاقب كما صاقبت قاصية دارنا، ما أتى من نصره فوق ما أتيت، ولا تولّى من انتشاله، والبغي في استقلاله إلاّ بعض ما تولّيت، ولا أنحى على المسلمين من مضارة إلاّ بدون ما أنْحيت، ولا بغاهم خبالا بأكثر ممّا بغيت.

وما في تلك الجزيرة[11] -عصمها اللّه- من صالح، ولا طالح إلاّ يعرضك على اللّه تعالى، ويرفع إليه فيك عقِيرته بالشّكوى، وكلّ ما سُفِك من دم، وانتهك من مَحْرم، واستهلك من ذمم فإليك منسوب، وعليك محسوب، وفي صحيفتك مكتوب، وموعد الجزاء غدا، وإنّه لقريب ؛ فانظر ما انجح أثرك، وأربح مَتْجرك، وأصلح موردك ومصدرك".

2). الظّروف التّاريخية لتحرير الرّسالة

يبدو أنّ الوثيقة التّي بين أيدينا، والمحرّرة من طرف الفقيه، والكاتب الإشبيلي الشّهير، الملقّب بذي الوزارتين : "أبي بكر محمّد بن سليمان الكلاعي"[12] باسم الأمير "يوسف بن تاشفين" المرابطي من جزيرة الأندلس إلى نظيره الحمّادي "النّاصر بن علناس" القابع على مشارف مدينة طنجة المغربية آنذاك. هي ردّ مطوّل لم يستنسخه الشّنتريني بكامله، وإنّما اكتفى بأهم ما جاء فيه على رسالة سابقة يكون النّاصر قد تقدم بها ليوسف، يشكوه من خلالها الاعتداءات المرابطية المتكرّرة على الحدود الغربية لمملكته بحجج واهية من غير أن تجد تلك الشّكوى ما تستحقّه من اهتمام المرابطين، كما يستشفّ من سياق الحديث في الرّسالة السّابقة : "ولم تتأوّل أنّ وراء كلّ حُجّة أدليتها ما يدحضها، وإزاء كلّ دعوة أبرمتها ما ينقضها، وتلقاء كلّ شكوى صحّحتها ما يمرِّضها".

الشّيء الذي أثار غضب النّاصر، ودفع به إلى توجيه حملته الثّأرية المذكورة، والتّي انتهت به إلى الوقوف على وادي منى بطنجة، واسترجاع ما سلبه منه الملثمون (المرابطون) بزعامة أميرهم الجديد "يوسف بن تاشفين" في النّاحية الغربية من بلاده، ساعة انشغاله بالزّيريّين في الشّرق، كما يبدو من تتبّع شريط أحداث الوقائع الدّائرة بين الطّرفين، بدءً بتحامل المرابطين على مدينة تلمسان، وما جاورها سنة (454هـ / 1062م) بدعوى ملاحقة أهل فاس المناوئين وقتها للحكم المرابطي بمراكش ؛ مرورا بالإغارة عليها مرّة ثانية في عام (468 هـ / 1075م)، حيث كان أميرها آنذاك "العباس بن يحيّى الزّناتي"، سليل أسرة "محمّد بن الخير بن خزر المغراوي"[13]. ثمّ إعادة الكرّة عليها مرّة ثالثة سنة (472هـ / 1079م) بقيادة قائد جيش المرابطين "مزدلي بن تلّكان اللّمتوني"، الذي تمكّن من القضاء على "يعلى" ولد حاكم تلمسان الأمير "العبّاس بن يحيّى"، وتخرّيب مصادرها، واغتنام ثرواتها. ثمّ مرّة رابعة بعد عامين من ذلك التّاريخ، أي في سنة (474هـ / 1081م)، واعتبارها بمثابة توغّل إستراتيجي، مُمهد لحملات مستقبلية جديدة على حساب الأراضي الحمّادية بالمغرب الأوسط، كما يستشفّ بوضوح من إبقاء بعض سرايا الجيش المرابطي هناك بصورة دائمة، وتعيين على رأسها قائد، وحاكم عسكري كبير، اسمه "محمّد بن تنغمر المسّوفي" على حدّ قول السلاوي[14]، أو أبو عبد الله محمّد بن يوسف على حدّ ما جاء في نصّ الوثيقة التّي بين أيدينا ؛ وأكّدته الأحداث

التّاريخية اللاّحقة التّي مكّنت المرابطين من دخول مدينة الجزائر كما هو معروف.

إلاّ أنّ النّاصر لم يكتفِ بردّ الاعتداء على نفسه فحسب فيما يبدو، وإنّما ردّ الصّاع صاعين، ففي سنة (479هـ / 1086م)، تاريخ اندلاع الحرب الصّليبية بإقليم الأندلس (جنوب إسبانيا حاليا)، والتّي تصادف تاريخ العبور المرابطي الأوّل إلى العُدوة الشّمالية من مضيق جبل طارق بدعوة من عميد ملوك الطّوائف "المعتمد على اللّه محمّد بن عباد" (431 - 488هـ / 1039 - 1095م)، وأمير إمارة أشبيلية، قصْد مقارعة الملك المسيحي "ألفونس السّادس بن فاردنند"، ملك قشتالة وليون، المعتدي على حرمة المسلمين بمدينة قورية، وطليطلة[15]. سارع النّاصر بجيوش جرّارة في حملة تأديبية للمرابطين المتوغّلين في أرضه، حيث تمّ له ردّهم على أعقابهم، وتقفّي أثرهم بداخل الأراضي المغربية الشّمالية إلى أن انتهى به المقام، الوقوف على الضّفة الشّرقية من وادي "منى" بأحواز مدينة "طنجة"[16]، ومن ثمّ وجّه خطابه ليوسف بن تاشفين، المنشغل بمجاهدة الصّلبيّين بالأندلس، يخبره بما وقع. فما كان ليوسف غير الرّد عليه بهذه الرّسالة المطوّلة.

3). مضمون الوثيقة

توحي القراءة المتأنّية لنصّ الرّسالة إلى وجود أربعة مواضيع أساسية، حتّى وإن كانت تبدو للعيان متعدّدة المشارب :

أوّلا : معاتبة النّاصر بن علناس على غزوته المباغتة للمرابطين، وتشميت الإدّعاءات، والاحتجاجات التّي اتّخذ منها لنفسه ذريعة، وتبرير الكيفية التّي ردّ بها على العدوان المرابطي، الذي انتهك حرمة الحدود الغربية لدولته الفتيّة.

ثانيا : التّلميح إلى السّبب المباشر، الذي دفع بالنّاصر لخوض غمار الحرب ضدّ المرابطين، والتّقليل من شأنه من حيث هو بادرة مرابطية غير محسوبة العواقب، في وقت كان فيه هؤلاء بحاجة ماسّة إلى سِلْم حقيقي مع جيرانهم بالمغرب الإسلامي، وتحاشي مناوشاتهم الاستفزازية، قصد تأمّين ظهرانيهم، والتّفرّغ لمجابهة الخطر الصّليبي الدّاهم للإمارات الإسلامية بعُدْوة الأندلس، الواحدة تلو الأخرى، وما تكبّده المسلمون من جرّاء ذلك من مآس، ونهب، وتشريد.

إذ يقول نصّ الرّسالة في هذا الشّأن : " وننشدك اللّه الذي ما تقوم السّماء والأرض إلاّ بأمره : ألم تكن عندما نزغ الشّيطان بينك، وبين أبي عبد اللّه محمّد بن يوسف رحمه اللّه، وتفاقم الشّأن، قد توفّر منّا على ما كان بالحال من إقلاق، وتأخّرنا عمّا كانت النّصبة تستقدم إليه من بدار أو سباق، ولم نمدّ الجهة حقّ مدادها، ولا كثّرنا فوق ما كان يلزم من جماهير أعدادها، ولا عدلنا عن جهاد المشركين، ولا اقبلنا إلاّ على ما يحوط حريم المسلمين، رجاء أن يثوب استبصار، أو يقع أقصار. وأنت خلال ذلك تحشد، وتقوم بحمية، وتقعد، وتبرق غضبا، وترعد، . . .".

ثالثا : التّأكيد على انصياع القبائل العربية للنّاصر في ذلك الوقت، والدّخول معه في تحالف قوّي ضدّ المرابطين : "... وتستدعي ذؤبان العرب، وصعاليكهم من مبتعد ومقرب، . .. كلّ ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تعصّبهم لك، وتألّبهم، وتعتقد أنّهم جُنَّتك من المحاذير، وحُماك دون المقادير". الشّيء الذي أثار غائلة المرابطين، وجعلهم يعيبون على النّاصر إقحام العرب بوصفهم عنصرا دخيلا في الصّراع القبلي الصّنهاجي الصّنهاجي بالمغرب الإسلامي خلال القرن السّادسة هجري، الموافق للقرن الثّاني عشر ميلادي، وتحذيره من مغبّة انقلاب هؤلاء عليه في نهاية المطاف مرّة : "وإنّك لَمتداوٍ منهم بسُمّ، ومستريح إلى غمّ" ؛ واتّهامه بشراء ذممهم بالأموال، والمبالغة في ذلك مرّة ثانية : "فتعطيهم ما في خزائنك جُزافا، وتنفق عليهم ما كنزه أوائلك إسرافا، وتمنح أهل العشرات مئين، وأهل المئين آلاف"، وبطمع العرب في ثروته مرّة ثالث : "ولولا مَالُك الذي ثمّدوه، وشارفوا إلى أن يستنفذوه ما أووا لشكواك، ولزادوك ضغثا على إبالة بلواك".

رابعا : تأثير غزوّة النّاصر بن علناس على ميزان القِوى في الحرب الدّائر رحاها بين النّصارى والمسلمين في الأندلس[17]، وانحيّاز مؤشّر النّصر للنّصارى بعدما أحكم المسلمون السّيطرة عليهم في بادئ الأمر، وتحمّيل النّاصر بن علناس مسؤولية كلّ ذلك، وما قد ينجرّ عليه في حقّ المسلمين أمام الله، والتّاريخ

مرّة : "وما في تلك الجزيرة -عصمها اللّه- من صالح، ولا طالح إلاّ يعرضك على اللّه تعالى، ويرفع إليه فيك عقيرته بالشّكوى، وكلّ ما سُفِك من دم، واُنتهك من مَحْرم، واستهلك من ذمم فإليك منسوب، وعليك محسوب، وفي صفيحتك مكتوب، وموعد الجزاء غدا، وإنّه لقريب" ؛ وبتشبيه فعلته تلك بالخيانة العظمى التّي لا تُتوقّع من العدوّ نفسه، ناهيك عن الجار القريب، والصّديق : "ولو أنّ صاحب رومه (كذا) المشتمل معه بعباءة الكفر، والشّرك، المنتحل ما ينتحله من كلمة الزّور والإفك، مكانك من جِوَارنا، ويصاقب كما صاقبت قاصية دارنا، ما أتى من نصره فوق ما أتيت".

4). تحلّيل مضمون الوثيقة

حتّى لا تخرج هذه الدّراسة على النّطاق المرسوم لها سلفا، يستحسن اقتصار الحديث على النّقطة ذات الصّلة بموضوع الدّراسة، ألا وهي النّقطة الثّلاثة من النّقاط المذكورة أعلاه، وطرح بقية النّقاط الأخرى جانبا، حيث يبدو للمتأمل للوهلة الأولى، استبعاد حصر الدّوافع الحقيقية لرحيل الحمّاديّين من القلعة صوب بجاية في نقمة الثأر من بني عمومتهم الزّيريّين، ومحاولة أخذهم من البحر على حين غرّة منهم، في الوقت الذي نجد فيه النّاصر بن علناس قد دخل مع غريمه، وابن عمّه المعزّ في علاقة مصاهرة متينة، من خلال إقدام هذا الأخير على الزّواج بإبنة المعزّ في عام (470 هـ / 1077م)، وتخصيص مباني رائعة لها في القلعة، وفي بجاية على قدم المساواة،

كما قد يُستنتج خطأ من رواية بن الأثير في هذا الصّدد. أو في مضايقات القبائل العربية لبني حمّاد في قلعتهم، خصوصا إذا ما أخذنا في الحسبان أنّ القبائل الهلالية، لم تحارب الحمّاديّين قط، بشهادة المصادر التّاريخية العربية المؤرّخة لها، بل الأكثر من ذلك، أنّها كانت تدين بولاء صادق للنّاصر، كما يستشفّ من نصّ هذه الرّسالة ؛ وتقديم تفسير جديد في هذا الشّأن، يصبح في غاية الأهمّية، ومُنتهى المعقولية، والذي يبدو للدارس حصره ببساطة في نضج الدّولة الحمّادية نفسها، وبلوغها مرحلة الرّشد ليس إلاّ، كما يمكن استنباطه من استقراء الأحداث التّاريخية لتلك الفترة من تاريخ المغرب الإسلامي.

ففي هذه الفترة بالذات توفّر للدّولة الحمّادية مجموعة لا يستهان بها من الاستعدادات التّحفيزية الطّبيعية الدّاخلية، في موازاة بعض العوامل الخارجية المواتية على بلورة مسارها الحضاري الفتيّ، لطالما تغافلنا على ذكرها في الدّراسات الحديثة، والتّي كان لها القسط الوافر على ما يبدو في تحفيزهم على حزم أمتعتهم عن طواعية، وطيب خاطر صوب بجاية. بعيدا عن كلّ أشكال الضّغوطات والمضايقات الوهمية، التّي درج الحديث عنها، في كتابات المؤرّخين القدماء والمحدثين على حدّ سواء.

5). الاستعدادات الطّبيعية والعوامل الخارجية المحفّزة على الرّحيل :

أ). ارتقاء الدّولة الحمّادية من مرحلة الدّولة المركزية إلى الدّولة الإقليمية : فمن المعلوم لدينا، أنّ النّاصر قد تقلّد زمام الأمر

سنة (454هـ/ 1062م)، واستمرّ حكمه مدّة سبعا وعشرين سنة كاملة، تمّ له من خلالها إعادة هيكلة الدّولة الحمّادية، هيكلة شبه جذرية على غرار ما أحدثه في مجال البناء، والتّشييّد بالقلعة وبجاية على قدم المساواة[18]؛ والارتقاء بهذه الأخيرة من مستوى الدّولة المركزية ذات النّفوذ السّياسي المحدود محلّيا، والقائمة على الاقتصاد المعاشي البدائي بما فيه رعي قطعان الماشية، ومزاولة الزّراعة الرّيفية، واحتراف بعض الصّناعات اليدوية اللاّزمة، قصد تحقيق الاكتفاء الذاتي الدّاخلي عبر مختلف مجالات الحياة إلى دولة إقليمية متمدّنة، مترامية الأطراف، قائمة على التّنظيم الإداري، والجبائي المحكمين، والصّناعات الرّفيعة الموجّهة للمنافسة، والتّصدّير نحو الخارج[19].

فقد اهتدى النّاصر بحنكته السّياسية الفذة إلى ضرورة بدء إصلاحاته من تقوّيم جهازه الإداري والجبائي على الصّعيد الدّاخلي، حيث قام في هذا الصّدد باستوزار "المنصور أبي بكر بن أبي الفتوح"، وهو المنصب الذي يُعدّ بمثابة أرقى سلطة تنفيذية في هرم السّلطة المركزية للدّولة، وقسّم أرجاء البلد إلى ست مقاطعات رئيسة، أسند فيها زمام غرب المملكة إلى أخيه "كبّاب"، الذي عيّنه واليا بمدينة مليانة لرصد تحرّكات المرابطين، وتجنّب اعتداءاتهم المحتملة، ونصّب أخاه الثاني "رمّان" على مقاطعة "حمزه" (البويرة حاليا)، بينما عيّن على مقاطعة نقاوس أخاه الثالث "خزر"، وعلى مقاطعة قسنطينة أخاه الرابع "بلبار"، فيما اسند شؤون مدينة

الجزائر، ومرسى الدّجاج لولده "عبد الأعلى"، ومهام مقاطعة أشير لولده الثّاني"يوسف"[20].

هذا فيما يخصّ التّنظيم الإداري، وجملة الإصلاحات العميقة المُدْخلة عليه، أمّا فيما يخصّ التّقويم المالي والجبائي، وفي غيّاب الدّراسات المحكمة بخصوص الموضوع في الوقت الرّاهن، فيمكن استنباط ذلك من خلال إقدام هذا الأخير على تشكّيل فرق من الشّرطة على هامش سرايا الجيش[21]، قصد حفظ الأمن الدّاخلي واستتبابه، والتّي كانت منتشرة بشوارع المدن، وعبر الطّرق العمومية، والموانى التّجارية، وفنادق القوافل، وفي كلّ ميدان عمومي آخر يستدعي حضورهم لفرض النّظام العام، وتوفير أسباب الرّاحة والطّمأنينة في نفوس الرّعية، وبقية جمهور الجاليات الأجنبية من حرفيّين، وتجّار، وطلبة علم، وغيرهم.

وإذا كان الإجراء السّابق لا يخرج عن نطاق الإصلاح الدّاخلي للدّولة، كما سلفت الإشارة، فإنّ تدعيمه باجرات جديدة على الصّعيد الخارجي، أملت على النّاصر فكرة توسيع نفوذه السّياسي شرقا على حساب المناطق التّونسية الشّاغرة، المُتَخلّى عنها من طرف الزّيريّين العاجزين على مقارعة القبائل العربية هناك، وتفضّيلهم الاعتصام بمدينة المهدية المنيعة (الخريطة : 01)، فقد تمّ له على اثر ذلك ضمّ مدينة "صفاقس"، وأهوازها بطلب من أهلها، حيث كتب إليه عاملها للزّيريّين آنذاك "حمّو بن ملّيل البرغواطي" يبايعه

على الطّاعة، ونبذ الولاء القديم للأمير "تميم بن المعزّ"، وكذلك مدينتي "قسيطلة" (توزر)، و"تونس" بقيادة واليها "أحمد بن خرسان" بذات الإقليم دائما[22].

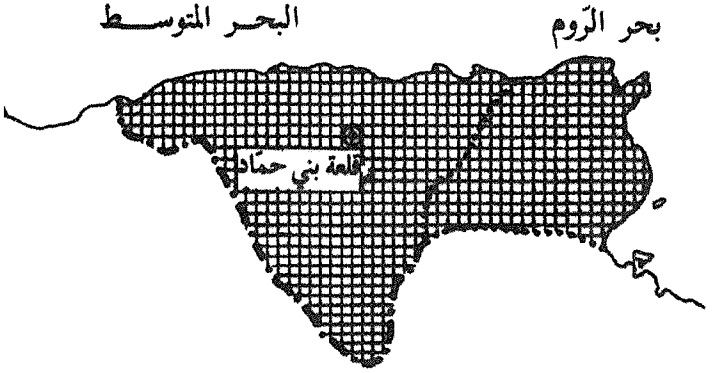

الامتـداد الجغـرافي

لدولة بني حمّاد في أقصى اتساعها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر م

الخريطة (01) : الحدود السّياسية للدّولة الحمّادية في أقصى توسّع لها على عهد النّاصر بن علناس، نقلا عن : "عويس عبد الحليم".

فتمّ للنّاصر بموجب ذلك ضمّ جميع أنحاء المغرب الأوسط (الجزائر)، والمغرب الأدنى (تونس)، إلى جانب شيء من مناطق نفوذ المرابطين بشمال المغرب الأقصى، حيث وسعه الأمر إلى الوقوف على مشارف مدينة "طنجة" البعيدة، واضطرار "يوسف بن تاشفين" إلى ترجّيه بغرض العدول عنها[23]، وأصبح ملك الحمّادين بموجب ذلك،

وعلى حدّ تشبيه صاحب كتاب الاستبصّار له مُضاهيا لملك الفاطميّين بمصر[24].

واستأنست له الرّعية جرّاء هذه الفتوحات الواسعة، ومنجزاته الحضارية الهائلة، فقصده العلماء والأدباء، والحرفيّون يخطبون خدمته[25] ؛ وصفت الأجواء للحمّاديّين بذلك للتّفرّغ إلى عملية البناء والتّشييّد، وطرح عنهم أوزار الحرب جانبا، وانتهاج سياسة خارجية جديدة قائمة على أسس حسن الجوار، والاحترام المتبادل، وعدم التّدخّل في الشؤون الدّاخلية للغير[26]. والانفتاح على المشرق الإسلامي بمستوى الانفتاح على الغرب الصّليبي، الشّيء الذي مكّن الدّولة الحمّادية من النّهوض بسرعة فائقة، وانتزاع مكانة مرموقة بين أقرانها بمنطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

بـ). موقف الدّولة الحمّادية من حروب الاسترداد بالغرب الإسلامي : لقد عادت سياسة حسن الجوار، وعدم التّدخل في شؤون الغير، المنتهجة من لدن الحمّاديّين حيال المحن العويصة التّي ألمت بالغرب الإسلامي آنذاك بالرّفاهية، والطّمأنينة، والازدهار الدّاخلي، خصّوصا إذا ما وضعنا بالحسبان جنوح الحمّاديّين إلى الحياد المطلق في معارك الحملة الصّليبية الأولى بين اللّفيف المسيحي من جانب، ومسلمي الأندلس، والمرابطون من جانب آخر. إذ بدأت العملية تؤتي أُكُلها، كما يستشفّ بوضوح في تشيّيد مدينة بجاية للنّاصر عام (457هـ / 1065م)، أي في فترة أقصى توسّع الدّولة سيّاسيا،

وجغرافيا، والذي لم تعرفه، لا من قبل، ولا من بعد قط، فأستبحرت حركة العمران ببجاية، فضلا عن تجديد مباني القلعة.

ممّا شجّع على ازدهار تجارتها الدّاخلية بين مختلف مقاطعاتها، وحاضرتها المركزية من جهة، وتمديد شبكة مبادلاتها الخارجية مع مختلف الأقطّار، وعادت مدينة بجاية محلّ استقطّاب أنظار الجميع، ومركزا اقتصاديا وتجاريا دوليا رائدا في الضّفة الجنوبية من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسّط، لا تضاهيها في ذلك غير مدينة الإسكندرية المصرية، كما يقرّره المؤرّخون العرب القدماء، ويؤكّده نظراؤهم الأوربيّون على قدم المساواة[27].

ج). توفّر المقوّمات الأساسية لإقامة عمران مديني متطوّر :

إنّ هذه الحالة المتقدّمة من الرّفاهية والازدهار العارم. لم تأتِ من قبيل الصّدفة، وإنّما هي ثمرة تحوّلات اجتماعية - ثقافثة عميقة، طرأت على تركّيبة سكّان مدينة القلعة خلال عهدة النّاصر بن علناس على وجه الخصوص. أضف إلى ذلك تنوّع، وكثرة الثّروات الطّبيعية الخامّة، التّي كانت تحوزها الدّولة الحمّادية عبر مختلف مقاطعاتها الواسعة، حيث عرف أميرها النّاصر كيف يستفيد من خراب عاصمة إقليم المغرب الأدنى، مدينة القيروان العريقة، كما يفسّره لنا انبهار رعيّتها به من جهة، ومن جهة ثانية مسير أهل الخبرة الكبيرة في مجال المعرفة العلمية، والصّنائع الحرفية، والتّجارة العابرة للأقاليم من هذه المدينة إلى مدينة القلعة، قصد تدعيم

ومؤازرة صنّاعها المحلّيين، وكذا تجنّب كساد منتجاتهم، وإفلاسهم المرتقب[28]. وهو ما أعطى دفعة قوّية لانبعاث الاقتصاد، والعمران الحمّادي في ظرف زمني قيّاسي. محقّقا بذلك الاكتفاء الذاتي، وتعدّيه إلى فائض عال الجودة في مستطاعه الرّواج في الأسواق الخارجية، دون خشية تحدّيات عقبة منافسته المحتملة من لدن الغير.

وإلى جانب هذه الشّريحة النّشطة، الوافدة على القلعة من الخارج في الوقت الذي كانت فيه هذه الأخيرة بأمسّ الحاجة إلى خبرتهم، ونشاطهم الدءوب، نسجّل توفّر المقوّمات الطّبيعية لإقامة زراعة واسعة، في مقابل وجود مساحات رعوية هائلة لتربية قطعان الماشية الكافي لسدّ متطلبّاتهم الغذائية من اللّحوم، وتوفّير المادّة الخامة من الصّوف النّاعمة، والوبر الذي تحتاجهما صناعة النّسيج الحمّادية، الذائعة الصّيت في مختلف أنحاء العالم القديم. وكذلك وجود المناجم المتنوّعة على قمم، وسفوح الجبال المطلّة على السّاحل المتوسطي مباشرة، وعلى امتداد طويل، يمكن تقدّيره بحدود ستمائة كيلو متر، كما يمكن ضبط امتداده الجغرافي بين مدينة الجزائر (جزائر بني مزغنّة) غربا، ومدينة القالة، أو كما كانت تعرف وقتها بمرسى الخرز شرقا.

أضف إلى ذلك كون هذا الشّريط السّاحلي زاخرا بخلجانه، ورؤوسه الكثيرة[29]، والتّي تعتبر بمثابة موانئ طبيعية محمية من

هبّات الرّياح الغربية، والرّيّاح الشّرقية الموسمية العاتية، وهبتها السّماء للحمّاديّين. والتّي يمكن تقديرها على حسب وصف البكري الدّقيق لها بستة وعشرين ميناء[30]. إلاّ أنّ أبرزها على الإطلاق، كانت أربعة هي من الشّرق إلى الغرب : مرسى القالة، الذي أُقيمت فيه دارا لبناء السّفن التّجارية والحربية على غرار ميناء بجاية، قصد وقف حملات القرصنة المسيحية المتكالبة على السّواحل الجزائرية آنذاك[31]. ومرسى بونة، أو عنّابة، الذي كان حافلا بالجاليات المسيحية الإيطالية، والجالية الأندلسية الإسلامية، والذي كان يقدّر دخله من غير حساب جباية دار المال بعشرين ألف دينار ذهبية كاملة[32]. ومرسى بجاية الذي يعتبر القلب النّابض لحركة التّجارة الخارجية الحمّادية، تؤمه الأساطيل والقوافل من كلّ حدب وصوب، محمّلة بالسّلع والبضائع المتنوّعة جيئة وروّاحا[33]. وأخيرا مرسى دلّس، أو تادلس الذي تميّز بتعامله الواسع مع الأندلس.

د). العوامل الخارجية المساعدة :

-استحواذ المرابطين على منابع الذهب، واحتكارهم للطّرق الموصلة إليه : كانت هذه المهمّة من قبل، حكرا على أمراء الخلافة الفاطمية المقيمين بالمغرب الأدنى، إلاّ أنّه بعد تنقّلهم إلى مصر، استفاد المرابطون من ذلك الوضع الجديد، الذي آل إليه المغرب الإسلامي من تشتّت إلى ثلاثة أقطّار، ولربّما كان من أبرز ما حفّزها على ذلك، موطن انطلاق دعوتها الإصلاحية في بادئ

الأمر، ونعني بذلك موضع رباط إمامهم "عبد اللّه بن ياسين" المشيّد على إحديْ ضفّتي الحوض الأدنى من روافد نهر السّنغال عام (433هـ / 1041م). والذي ابرز دورا معتبرا لاحقا في تأمّين الطّرق التّجارية المرابطية الثّلاث، الرّابطة بين المغرب الأقصى، ومملكة غانة موطن تبر الذهب العال الجودة من سطوّ قطّاع الطّرق، والمنبوذون من عشائرهم القبلية[34]. وسدّوا بذلك الطّريقين القديمين اللّذين كانا يربطان بين بلاد السّودان في الجنوب وبلاد المغربين الأدنى (تونس)، والأوسط (الجزائر) بالشّمال[35]. حيث كان الطّريق الأوّل منهما، منطلق من عاصمة المغرب الأدنى، مرورا بغدامس الواقعة اليوم في التّراب اللّيبي، وانتهاء ببلاد مالي والنّيجر. بينما كان الطّريق الثّاني ينبع من قلب عاصمة الرّستميّين "تاهرت" في بادئ الأمر، ثمّ "سدراتة" الواقعة بالقرب من ورقلة اليوم بالمغرب الأوسط، مرورا بتغازى، موضع تفرّعه إلى فرعين ثانويين، أحدهما يتجه غربا نحو "أودغست" ؛ فيما يختار الثّاني وجهته شرقا صوب مدينة "كانو"، الواقعة بمنطقة بحيرة التّشاد، وبالضّبط بالقرب من إحدى روافد نهر النّيجر[36]. والاكتفاء فقط بالطّرق الثّلاث السّابقة الذكر، والتّي كانت توصل، كما قلنا بين المغرب الأقصى موطن حواضر الملثّمين بمدن مملكة غانة، مرورا بالأراضي الموريتانية المجاورة[37].

وتكرّست بذلك سيطرة، واحتكّار المرابطين بشكل يكاد أن يكون مطلقا للتّجارة الصّحراوية، القائمة على مقايضة

البضائع بالذهب. لاسيما بعدما أحكمت سيطرتها على المناطق الممتدّة بين غدامس شرقا إلى سواحل المحيط الأطلسي غربا ؛ ومن جبال "الدّرن" شمالا إلى أعمّاق الصّحراء الإفريقية الكبرى جنوبا[38]. وفي مقدّمتها مدينة "أودغست"، التّي فتحوها أيّام الأمير "أبو بكر بن عمر" سنة (446هـ / 1054م)، وتحمّيل أهلها "السّنكيون" الوثنيون على اعتناق الإسلام.

إذ كانوا يقايضون ذهب مملكة غانة، المستخرج من مناجم "نقّارة"، الواقعة على ضفاف نهر السّنغال إلى جانب بعض المواد الثّمينة الثّانوية الأخرى، مثل العاج، وعود الأبنوس بالملح المستخرج من مناجم "أوليل"، "وتغزى"[39]. وبعض المواد المصنّعة، شأن الأقمشة، والمصنوعات الجلدية، والمعدنية المتنوّعة، والزّجاج، والأصداف، والحليّ، والقطران، والعطور، والتّمر، والمرجان المفصّل خرزا بمدينة سبتة السّاحلية[40]. وانطلقت جرّاء ذلك سمعة الدّينار الذهبي المرابطي مدوّية في منطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط بأسره، منذ عام (464هـ / 1071م) تاريخ مبادرة الأمير يوسف بن تاشفين بضرب النّقود الذهبية[41]. وعاد يصطلح عليه هناك بالمثقال المرابطي، والذي لم يتوان بعض ملوك أوربا في تقليده مثل "ألفونس بن فاردننذ"، ملك قشتالة وليون بإسبانيا.

-تكالب القرصنة الصّليبية على السّواحل الحمّادية : لقد شهد القرن (5هـ / 11م) ظهور قِوَى بحرية جديدة حلّت محلّ أساطيل

المسلمين والبيزنطيّين، سادة المتوسّط إلى وقت قريب، إنّها أساطيل الجمهوريّات الإيطالية، التّي عادت تثير الرّعب والهلع في نفوس المسافرين، والتّجار، وسكّان أهل السّواحل، لما يكابدونه على يديها من غارات خاطفة للنّهب والسّلب. والتّي ما كادت تمرّ عقود قلائل على تاريخ نشأتها، حتّى عادت تسيطر على كامل جزر المتوسّط بدءً بجزيرة صقلّية، مرورا بجزيرتي "كورسيكا" و"ساردانيا"، وجزر البليار الثّلاث (مايورقة، ومنروقة، ويابسة) في الحوض الغربي من البحر المتوسط ؛ وانتهاء بجزيرة "مالطا"، و"كريت"، و"قبرص" بالحوض الشّرقي منه. أضف إلى ذلك هيمنتها على النّقل البحري من سواحل فلسطين ولبنان في الشّرق إلى سواحل الأندلس بالغرب[42].

إذ باشروا عدوانهم المتكرّر على السّواحل الحمّادية في الجنوب ابتداء من عام (426هـ / 1034م)، تاريخ غزوهم لساحل مدينة عنّابة، وما والاه لاحقا من غزوّ كلّ من : بجاية عام (428هـ، 1036م)، أين تمّ لهم الاستحواذ على سفينة تجارية كبيرة، واختطافها بمن عليها[43]. لتتواصل هذه الحملات المسعورة بين الفينة والفينة الأخرى، رغم المعاهدات والمواثيق المبرمة بين الطّرفين، كما يستشفّ من اعتدائهم على سواحل جيجل في عام (537هـ / 1142م). الشّيء الذي حمّل النّاصر بن علناس في هذا الشّأن إلى الإقدام على بناء أسطول بحري صغّير، لكن ذو فعّالية كبيرة على ما يبدو، وتخصّيص له قاعدتين بحريتين استراتيجيتين، أولهما على مستوى

مدينة القالة شرقا، والأخرى بمدينة بجاية القلب النّابض الجديد للدّولة غربا، قصد الصّمود في وجه الاعتداءات الإيطالية المتكرّرة، وتوفير الأمن المطلوب لحركة تجارتها الخارجية النّشطة. وهو الأسطول الذي أعاد تجديده حفيده من بعد، الأمير "يحيّى بن العزيز"[44].

- **أثر الأساطيل التّجارية في فكّ العزلة بين الأقاليم** : مع حلول منتصف القرن (5هـ / 11م) بدت على منطقة المتوسّط ظاهرة عجيبة، مشابهة إلى حدّ بعيد ظاهرة وسائل تكنولوجية الاتّصال اليوم، باعتبّار أنّ وسيلة النّقل البحري تلك، قد وفّرت كثيرا من الرّاحة للمسافر والتّاجر، واختصّار عليهما طرق القوافل البرّية البعيدة. وتقلّيص مدّة السّفر إلى حجم مغري للتّجار على وجه الخصّوص ؛ فالمسار الذي كان لا يُقطع، إلاّ بعد مُضي عدّة شهور كاملة، أصبح يقطع في أسبوع، أو أسبوعين على الأكثر. وتمّ بذلك توحّيد بلدان المتوسّط تجاريا، رغم تباين أنظمة بلدانه اجتماعيا، وثقافيا، وعقائديا من جهة، ومن جهة أخرى تأجّج العداء التّاريخي بين المسلمين والمسيحيّين بالمنطقة، حيث اختارت الدّولة الحمّادية في نزاعاته الإقليمية تلك، موقف "الحيّاد السّويسري"، وعادت البضائع، والسّلع، والأشخاص، والأفكّار، والكتب، تجوب مختلف موانئ بلدان المتوسّط، غير عابئة بالأجواء المكهربة جرّاء الحملات الصّليبية المتأجّجة[45].

6). أثر السّياسة الخارجية الجديدة في مصير الدّولة الحمّادية :

برزت الآثار الايجابية لهذه النّقلة النّوعية في حياة الدّولة الحمّادية، كحقيقة محسّوسة ماديّا على الصّعيد الدّاخلي في مقابل تمكّنها من تصريف فائضها الإنتاجي بنوعيه الخامّ والمصنّع[46]. ففي مجال الإنتاج الزّراعي نجدها قد صدّرت من أنواع الثّمار : اللّوز، والجوز، والبلح، والتّين، والعنب المجفّفين، والزّيتون ومشتقّاته من الزّيت، والشّمع. ومن البقول الجافّة : القمح، والحنطة (القمح اللّين)، والشّعير ؛ وفي مجال المواد الطّبيعية الخامّة : العسل، والقطران، والخرز، أو المرجان، وعمود الخرط. ومن المعادن النّحاس، وكذلك تصدير الأعشّاب الطّبية المقتلعة من ضواحي بجاية. وفي المجال الصّناعي : الكتّان، والخزف العال الجودة، والمنسوجات الصّوفية كالسّجاد، والقبّعات الرّفيعة على وجه الخصوص.

وفي مقابل ذلك فتحت آفاق جديدة لتوسّع وانتشار الاقتصاد المحلّي، وإحرازه على قفزة نوعية عملاقة، بلغ صداها أقصى الشّرق كبلاد الصّين والهند، حيث تُطلعنا، وثائق خزائن القاهرة[47] على أنّ الاقتصاد المغربي كان مزدهر، ومعتبرا للغاية خلال القرنين (5 - 6هـ/ 11 - 12م)، حيث استقطب اهتمام تجّار فارس والعراق والشّام نحوه، وبما فيهم الأقلّية اليهودية التّي كان أفرادها يدّعون لأنفسهم نَسبا من المدينة القادمين منها، دون استخدام ألقابهم الحقّيقية مثل : النّشبوري، والسّمرقندي، والواسطي، والبصري، وغيرهم، تجنّبا لإثارة الحساسية العدائية نحوهم من لدن خصومهم في العقيدة والدّين.

إذ تزوّدنا هذه الوثائق النّفيسة بقوائم، وأرقام مضبوطة حول طبيعة وحجم الكميّات المغربية المستوردة من الهند، والمتمثّلة على وجه الخصوص في : التّوابل، والعطور، والبخور، والأصبّاغ، واللّمعات النّباتية، وبعض الأعشّاب الطّبية. ومن الصّين الحديد، والقصدير، والحرير، والجوهر، وخزف "البورسلان" العال الجودة. ومن بلاد فارس الأواني المنزلية النّحاسية، والفخّار من اليمن، والعاج من إفريقيا السّوداء، وبعض الفواكه الاستوائية مثل الكمناجه *(MANGOES)* وجوز الهند[48].

أضف إلى ذلك الاستفادة من خلال وارداتها هذه كسب زراعات مشرقية جديدة مثل : زراعة القطن، وقصب السّكر، والزّعفران، وبعض التّوابل الأخرى إلى جانب مستخلصات العطور المتنوّعة، والتّي كانت تروّجها بدورها نحو أوروبا، وفي مقدّمتها إيطاليا.

هذا إذن عن الانعكاسات الدّاخلية الطّيبة، والتّي من دون شكّ أنّها درّت عليها أرباحا طائلة، كما يؤكّده البكري في مداخيل موانئها الرّئيسية. أمّا فيما يخصّ الانعكاسات الخارجية، والتّي لا تقلّ عنها إيجابية فقد بدت في ظاهرة كسب ثقة واحترم خصومها المقربّين بالمنطقة، وكذلك تأمّين سواحل الدّولة وثغورها من حملات القرصنة المتوالية عليها من قبل بين الفينة، والفينة الأخرى على أيدي أساطيل الجمهوريات الايطالية الاثنتا عشرة، شأن جمهورية بيزا، وجنوة، والبندقية، وباري، وسالرن، بل الأكثر من ذلك كلّه، هو

رضوخ ايطاليا إلى عقد معاهدات تجارية معتبرة مع الحمّاديّين، تعزّزت بتبادل التّمثليات الدّيبلوماسية بين البلدين، واستدعاء النّاصر لجالية مسيحية معتبرة لاستكمال مشاريعه العمرانية الكبيرة ببجاية وغيرها، وكذا ضمان لهم حقّ الجالية، كحرّية ممارسة شعائرهم الدّينية التّي شيّد لها كنائس، كان رهبّانها يعيّنون من طرف البابا بروما، الشّيء الذي آثار استحسّان البابا "قرقوار السّابع"، ودخوله في علاقات حميمية شخصية مع النّاصر، وتلقّيب مملكة هذا الأخير بموريطانيا السّطايفية، تلمّيحا منه إلى توطّيد العلاقات بين الطّرفين منذ الاحتلال الرّوماني للمنطقة[49].

خلاصة :

انطلاقا ممّا سبق يتّضح جليا بأنّ رحيل الحمّاديّين من القلعة إلى بجاية على عهد الأمير "النّاصر بن علناس"، لم يكن مردّه إلى الغزوّ العربي الهلالي، كما ادّعت بعض المصادر التّاريخية خطأ، ولا رغبة الانتقام من بني عمومتهم الزّيريّين كما قال بذلك ابن الأثير، وإنّما هو ثمرة حركة ديناميكية فاعلة، اعترت المجتمع الحمّادي في مختلف جوانبه. كان من إفرازاتها الايجابية، حدوث تحوّلات ثقافية، وحضارية هائلة، ولعلّ ممّا زاد في تفعّيل حركتها الانفتاح الايجابي على الغير، ممّا استدعى ضرورة تقريب العاصمة أكثر، فأكثر من الشّركاء. وبذلك كان نقل مقرّ العاصمة رسميا من القلعة نحو بجاية عام (460هـ / 1067م)، مجرّد نقلة تلقائية إصلاحية، أملتها الظّروف

التّطورية السّريعة التّي اعترت الدّولة، ضمن المشروع الحضاري الطّموح الذي أقدم على تنفيذه "النّاصر" بنجاح منقطع النّظير.

ولا ننسى أنّ العاصمة الحمّادية كانت في بادئ الأمر بأشير خلال المرحلة الانفصالية للحمّاديّين على بني عمومتهم الزّيريّين، قبل أن ينتقلوا بها في المرحلة الثّانية، والمتمثّلة في مرحلة تثبّيت، وتوطّيد العرش الحمّادي بالمغرب الأوسط، وما كان يعتريها من حروب وثورات متتالية، حيث وقع اختيارهم الصّائب على موقع مدينة "القلعة" ذات الدّور العسكري المميّز، والذي شبّهه ياقوت الحموي بموقع قلعة "أنطاكية" بالشّام[50].

ذلك الموقع الذي رصده جدّهم زيري بن مناد لأوّل مرة في آخر معركة هناك للثّائر الخارجي عن الفاطميّين "أبو يزيد مخلد بن كيداد"، قبل أن يستقرّ بها المقام في نهاية المطاف ببجاية على منوال ما حدث مع العاصمة الفاطمية بالمغرب الأدنى التّي رُحِّلت مرّتين كما هو معلوم، ومرّة ثالث إلى القاهرة بمصر. وهو الشّيء نفسه نجده متكرّرا في تاريخ العاصمة المرابطية المعاصرة للدّولة الحمّادية تقريبا، حيث كانت في بادئ الأمر بمدينة أغمات على عهد أبي بكر بن عمر، فمرّاكش مع مجيء ابن عمّه يوسف بن تاشفين، ثمّ ترحّيلها مرّة ثالث، وبصورة نهائية إلى مدينة فاس. وكذلك ما حدث مع العاصمة الزّيرية نفسها أيضا، ولكن هذه الأخيرة لم تكن مخيّرة في ذلك، شأن نظيراتها الفاطمية، والحمّادية، والمرابطية، وإنّما كان تحت التّأثّير الإجباري للغزوّ الهلالي السّاحق.

هوامش البحث :

1- حول تفاصيل هذه الحادثة المشهودة، الواقعة بين الجيش الحمّادي ونظيره الزّيري، ومَن حالفهما بالقرب من حاضرة القيروان التّونسية، وما انجرّ عليها من نتائج وخيمة على الحمّاديّين بسبب الهزيمة النّكراء التّي منيت بها فلول جيشهم، ومن حالفه من القبائل الزّناتية المغربية، وقبيلتي عدي والأثبج العربيتين، ينظر :

ابن الأثير، (أبو الحسن بن أبي مكرم)، **الكامل في التّاريخ**، منشور من غير تحقّيق ؛ نشر مشترك بين دار صادر، ودار بيروت، 1966، الجزء 10، ص 44 - 45.

2 - نفسه، ج 10، ص 44.

- ابن عذارى، (المرّاكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقّيق ومراجعة : ج. س. كولان، وأ. ليفي بروفنسال، نشر دار الثّقافة، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1983، الجزء الأوّل، ص 299.

3- ابن الأثير، مصدر سابق، ج 10، ص 47.

4- تؤكّد الوقائع التّاريخية على أنّ هذه القبائل العربية قد كانت منذ مرحلة تاريخية متقدّمة، مجرّد وسيلة ضغط فعّال لقلب موازين الثّقل بين الخصوم المتنافسين، الطّموحين، متى استدعت الضّرورة ذلك. فقد اُستخدموا كذراع واقية للحركة القُرْمُطية في بادئ الأمر ؛ ثمّ من قبل العبّاسيّين لوقف المدّ الفاطمي عليهم من الجهة الغربية ؛ ثمّ من طرف الفاطميّين أنفسهم أيضا في مجابهة ولاّتهم الزّيريّين المنشقّين عليهم حديثا ؛ ثمّ إقحامهم من طرف الأمير الزّيري "تميم بن المعزّ " في الصّراع الدّاخلي الصّنهاجي بين البيت الحمّادي، والبيت الزّيري، المتنازعيْن على زعامة القبيلة، وريادة المنطقة ؛ ولو أنّ وجه الإقحام هذه المرّة، كان مختلف عن ما سابقه، حيث كانت القبائل العربية في الأحداث الأنفة الذكر تقاتل متّحدة إلى جانب طرف ما، على خلاف الصّراع الصّنهاجي، أين انقسمت فلولهم إلى ما بين مناصر للحمّاديّين، ومناصر

للزّيريّين. وأخيرا تسخّير قبائل بني هلال، دون بني سليم من طرف الحمّاديّين في إخماد مناوشات القبائل الزّناتية بالغرب، وكبح أطمّاع المرابطين التّوسعية على حساب مناطق نفوذهم، كما يؤكّد ذلك مضمون هذه الوثيقة التّاريخية.

5- لا نكاد نعثر على مصدر تاريخي محايد، قد أنصف العرب في الأحداث التّاريخية والسّياسية بشمال إفريقيا، ولعلّ أكثرهم تحاملا هو المؤرّخ "عبد الرّحمان بن خلدون" الذي تصوّره البحوث الغربية بدعايتها المغرضة المعهودة كأوثق، وأتمّ رواية تاريخية حول تاريخ المنطقة في فترة القرون الوسطى.

6- حول نصّ الرّسالة ينظر :

- ابن بسّام الشّنتريني، (أبو الحسن)، **الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقّيق إحسان عبّاس، نشر دار الثّقافة، بيروت، 1979، الجزء الثّاني، ص 257 - 260.

- عصمت عبد اللّطيف دندش، **أضواء جديدة على المرابطين**، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، 1991، ص 78 - 80.

7- إشارة منه إلى القبائل العربية المتحالفة مع النّاصر، والتّي يعتبرها المرابطون من جهتهم، عنصرا دخيلا على المنطقة، ولا يعنيهم الصّراع القبلي- السّياسي القائم بالمنطقة، كما سيتبيّن ذلك بشيء من الوضوح في الفقرة الموالية.

8- وردت تسمية هذه الشّخصية عند السّلاوي باسم "محمّد بن تنغمر المسّوفي"، ينظر : السّلاّوي (أحمد بن خالد النّاصري)، **كتاب الإستقصا لأخبّار المغرب الأقصى**، طبعة حجرية من غير تحقّيق، ولا ذكر لدار النّشر، 1306هـ / الجزء الثّاني، ص 32.

9- الذماء : بقية الرّوح.

10- أكّدت المصادر التّاريخية الغربية، أنّ الأساطيل الإيطالية قد انضمّت فعلا إلى الملك المسيحي في معركة الزّلاّقة الأولى سنة (479هـ / 1086م)، حيث شنّت الأساطيل النّورماندية غارة على سواحل مدينة بلنسية، والمريّة، معقل الأسطول الأندلسي أيّام الأمويّين، وسلب منهما ما أمكنهم سلبه، وفرضهم على الأولى

إتاوة ضخمة، مقدّارها 113 ألف دينار ذهبي مرابطي ؛ فيما فُرض على الثّانية إتاوة مقدارها عشرون ألف دينار مرابطي أيضا، أكثر تفاصيل عن الموضوع، ينظر على سبيل المثال : أرشيبالد، (لويس. ر.)، **القوى البحرية في حوض المتوسّط** (500 - 1100م)، تعريب أحمد موسى، مراجعة وتقدّيم، شفيق غربال، نشر مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة، بدون ذكر تاريخ الطّبع، ص 372.

11- يعني شبه الجزيرة الأيبيرية، أو كما كان متعارف عليه آنذاك بين المسلمين بجزيرة الأندلس.

12- هو أبو بكر محمّد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي، الملقّب بابن القصيرة، كاتب وأديب أندلسي مشهور، نشأ وترعرع في دولة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية، ولما استولى النّصارى على طليطلة، وأشتدّ بأسهم على ملوك الطّوائف بالأندلس، أُنتدبه هذا الأخير للاضطلاع بمهام السّفارة المتكرّرة على يوسف بن تاشفين بحضرته في مرّاكش ؛ وكان له بموجب ذلك دورا كبيرا في مجريات الأحداث التّي أحاطت بمعركة الزّلاقة عام (479 هـ / 1086م) على حدّ قول ابن عبد المنعم الحميري في كتابه الموسوم بـ : "**الرّوض المعطار**"، واستيلائه على دولة المعتمد، استيلاءً قلّ نظيره على حدّ قول ابن بسّام في ذخيرته، غير أنّ هذا الاستيلاء لم يدم طويلا فيما يبدو من استقراء مجريات الأحداث بالأندلس آنذاك. فقد نكّبه يوسف بن تاشفين، كما فعل ببقية ملوك الطّوائف، وأمرائها عقب معركة الزّلاّقة، وأفل نجمه لمدّة ثلاث سنوات كاملة، ثم عاود الظّهور من جديد بسبب ورود كتاب على يوسف بن تاشفين من مصر، وحاجته لهذا الأخير بغرض الردّ عليه في عقب الوفاة المباغتة لكاتبه الخاصّ "عبد الرحمان بن أسباط". فأدناه من نفسه، منذ ذلك الحين، وبقي في خدمة البلاط المرابطي على عهد يوسف بن تاشفين، وولده عليّ إلى أن وافته المنية بمدينة مرّاكش عام (508 هـ / 1114م) ؛ مُخلّفا وراءه مؤلّفات أدبية كثيرة، كان من جملتها الرّسالة التّي بين أيدينا، وتسع رسائل أخرى تم نشرها له حديثا ضمن

مجموع موسوم بـ : "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين". أكثر تفاصيل عن ترجمته، ينظر على سبيل المثال :

- ابن بسّام الشّنتريني، مصدر سابق، ص 239، وما بعدها.

- محمّد عليّ مكّي : **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، مكتبة الثّقافة الدّينية، القاهرة، الطّبعة الأولى، 2004، ص 09 — 10.

13- **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المرّاكشية**، لكاتب أندلسي مجهول، تحقّيق سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، دار الرّشاد الحديثة، الدّار البيضاء، الطّبعة الأولى، 1979م، ص 28، 33.

14- السّلاوي، مصدر سابق، جزء 02، ص 31 - 32.

15- ابن الخطيب، (لسان الدّين)، **أعمّال الأعلام**، تحقّيق وتعلّيق : أحمد مختار العبّادي، ومحمّد إبراهيم الكتّاني، نشر دار الكتاب، الدّار البيضاء، المملكة المغربية، 1964، الجزء 03، ص 277 - 278.

16- يبدو أنّ المرابطين قد حملوا على جزيرة الأندلس بمعظم جيشهم من المغرب، ولعلّ ما بقي منه، هو ثلّة قليلة، إن لم نقل أنّها رمزية، وإلاّ بماذا نفسر التّوغّل الخاطف للنّاصر بن علناس إلى مدينة طنجة، وإجبار الأمير "يوسف بن تاشفين" على العودة من العُدْوَة مباشرة بعد حسم معركة الزّلاّقة، دون استكمال مراسيم النّصر التّي يُعلّلها المؤرّخون القدماء بانتهاء إلي مسامعه نبأ الوفاة العاجلة لأكبر أبنائه السير، أو أبو بكر بطنجة دائما، دون الإشارة إلى هذه الغزوة الحمّادية المباغتة. ينظر على سبيل المثال : **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المرّاكشية**، مصدر سابق، ص 66.

17- أعتقد أنّ كلام الكاتب في هذا المقام هو من باب المبالغة والتّهوّيل، أو من باب عمق الصّدمة التّي اعترته من فعل النّاصر في تلك الظّروف التّاريخية الحرجة، التّي تحتاج إلى تآزر المسلمين وتكافلهم فيما بينهم من أجل تخطّي الخَطْب المحدّق بهم من كلّ جانب، ولكن الأهم من ذلك هو عدم تسرب خبر

الفاجعة إلى معسكر النّصارى، رغم حرب الجوسسة الملتهبة بين الطّرفين، وإلاّ كان لوقعة الزّلاّقة تاريخا غير الذي نعرفه اليوم. أمّا بخصوص موقف الحمّاديّين من التّواجد المرابطي بالأندلس آنذاك فنقرأه من خلال إقدامهم على استضافة بعض الأمراء الأندلسيّين الفارّين ساعتها من البطش المرابطي، ومنحهم امتيازات خاصّة بمدينة تادلس.

18- ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 97.

19- أكثر تفاصيل ينظر على سبيل المثال : الغنيمي عبد الفتّاح مقلد، **موسوعة المغرب**، نشر مكتبة مذبولي، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1994م، الجزء الرّابع من المجلّد الثّاني. ص 286 - 360.

20- العربي، (إسماعيل)، **دولة بني حمّاد ؛ ملوك القلعة وبجاية**. نشر الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1980، ص 161 - 162.

21- الغنيمي، مرجع سابق، ص 358.

22- العربي، مرجع سابق، ص 169- 170.

23- تأمّل فقرات الرّسالة المدوّنة أعلاه.

24- ***Kitab el - Istibçar***. *Traduit de l'Arabe par : FAGNAN, (E). Edité dans : Recueil des Notices et Mémoires de la société archéologique du Département de Constantine. Deuxième volume de la Quatrième série, trente-troisième volume de la collection, Année 1899, Constantine, Alger et Paris, 1900, p 35.*

25- ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 97.

26- الغنيمي، مرجع سابق، ص 360 — 393.

27- ينظر :

- البكري، (أبو عبد اللّه بن عبد العزيز)، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**، نشر وترجمة : البارون دوسلان ماك كيقن، طبع أدولف جوردان، الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1911، ص 82، 167.

- الإدريسي (أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد العزيز)، **المغرب من كتاب نزهة المشتّاق**، حقّقه ونقله إلى الفرنسية : محمّد حاج صادق، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 116.

- الحميري، (أبو عبد اللّه محمّد بن عبد المنعم)، **الرّوض المعطّار في خبر الأقطار**، حقّقه : إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1984، ص 80، عمود 1.

- ابن الفضل، (شهاب الدّين أحمد بن يحي)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (قسم أفريقية، والأندلس)**، نشر : حسن حسين عبد الوهاب، مطبعة النّهضة، تونس، بدون ذكر تاريخ الطّبع، ص 09.

- عويس، (عبد الحليم)، **دولة بني حمّاد ؛ صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري**، نشر دار الشّرق، بيروت، الطّبعة الأولى، 1980، ص 104، 226.

- العربي، مرجع سابق، ص 190، 243.

- هاينرتش، (فون مالتسان)، **ثلاث سنوات في شمالي غربي إفريقيا**، ترجمة : أبو العيد دودو، نشر الشّركة الوطنية للنّشر، الجزائر، 1979، الجزء الثّاني، ص 113 - 121.

*-**El Istibçar**, Op.cit, pp 32 - 34.*

*-FERAUD, (L. CH) : « Bougie ». Dans : **Recueil de Constantine**, T 13, Année 1869, pp 87 - 407.*

28- الغنيمي، مرجع سابق، ص 324 — 325.

29- المقصود بالخليج هو المجرى المائي البحري، الممتدّ في عمق اليابسة، أمّا الرّأس فهو العكس، أي القرن اليابس الموغل في عمق البحر.

30- البكري، مصدر سابق ص 55.

31- نفسه، ص 55.

32- نفسه، ص 55.

33- حول طبيعة المواد الحمّادية المصدّرة إلى الخارج، والمواد التّي تستوردها، أنظر ما سيأتي في البحث.

34- سعدون، (عبّاس نصر اللّه)، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس ؛ عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين.** نشر دار النّهضة العربية، بيروت، الطّبعة الأولى، 1985، ص 26، 28.

35- أمام هذه الحقّيقة التّاريخية، التّي جعلت من الدّينار الذهبي المرابطي عملة قابلة للصّرف في مختلف بلدان منطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط، كما سنرى بعد قليل، مُضاهيا في ذلك عملة "الأورو" لأوربا الموحّدة اليوم. فإنّنا لا نستبعد بأن يكون لها أثرا عميقا في تخلّي الأمراء الحمّاديّين على ضرب نقود ذهبية بأسمائهم طيلة عمر دولتهم، رغم ما بلغته من تقدّم حضاري، وازدهار اقتصادي.

36- الطّيبي، (أمين توفيق)، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، نشر الدّار العربية للكتاب، ليبيا / تونس، 1984. ص 303، وما بعدها.

37- كان ذهب السّودان إذن، يَنْساب إلى المغرب الأقصى أوّلا، وذلك إمّا عبر الطّريق السّاحلي الموازي للمحيط الأطلسي، أو عبر طريق ثان موازٍ له بالدّاخل، والذي لا يبعد عنه كثيرا، أو عبر الطّريق الثّالث الممتدّ بين سجلماسة، وأودغست، ثمّ ينقل من هناك إلى بقية أنحاء المنطقة المتوسطية على أيدي المرابطين أنفسهم.

38- سعدون، مرجع سابق، ص 13.

39- نفسه، ص 16.

40- الإدريسي، مصدر سابق، ص 108.

- الطّيبي، مرجع سابق، ص 304.

41- ابن عذارى، مصدر سابق، الجزء 4، ص 22.

42- أرشيبالد، مرجع سابق، ص 361، 384.

43- العربي، مرجع سابق، ص 252 - 253.

44- الغنيمي، مرجع سابق، ص 355، 356.

45- *GOITEIN (S. D), « The unity of Mediterranean world in the 'middle' middle ages ». In :* ***Studia Islamica****, T 12, 1960, p 30.*

46- أنظر بهذا الشّأن جملة المصادر والمراجع المثبّتة في الهامش (16) أعلاه.

47- خزائن القاهرة، أو (Cairo geniza) مصطلح عبري ينعت جملة الوثائق التّاريخية المجمّعة من مكتبات البيع اليهودية القديمة، التّي كانت مشيّدة بمدينة القاهرة المصرية خلال فترة القرون الوسطى. وقد اشتملت هذه الوثائق في طيّاتها على : الرّسائل الشّخصية، وفواتير الحسابات وكنشاتها، ومواثيق عقود البيع والزّواج، وبراءات إتاوات العبور في موانئ وأراضي الفاطميّين، وفصول من كتاب التّوراة، وما إلى ذلك من الوثائق الإدارية الرّسمية التّي كانت متداولة بينهم في مختلف مجالات الحياة اليومية عامّة.

وقد وردت كتاباتها إمّا بلغة العصر آنذاك، وأعني اللّغة العربية الفصحى، حيث تشكّل نسبتها ثمانين في المائة، فيما كانت العشرين في المائة المتبقّية للّغة العبرية دون سواها، والتّي كرّست في غالب الأحيان منها إلى تدوّين فصول الكتاب السّماوي المنزّل على موسى (عليه السّلام). وقد قدّر عددها الباحث اليهودي "قراهمان، أ" *(GRAHMANN, A)* في مطبوعه الموسوم بـ : "من عالم البردي العربي"، أو *(From the world of Arabic papyer)*، المنشور بالقاهرة، 1952 بما ينيف عن (17000) وثيقة بردية تامّة، وما يناهز (33000) قطعة أخرى غير كاملة، أي بمجموع نهائي، ينيف على (50000) وثيقة. غير أنّ أهمّ ما تجدر الإشارة إليه في ذلك، هو كون هذه الوثائق ليست محرّرة بكاملها في مدينة القاهرة المصرية، كما قد يُتوهّم من تسميتها. وإنّما كان ذلك في مدن أخرى عديدة، حيث نجد في هذا السّياق منطقة شمال إفريقيا في المقام الأوّل، يليها في المقام الثّاني بلاد الشّام وعلى رأسها فلسطين وسورية بهذا التّرتيب، ثمّ

العراق، فاليمن، فالهند، ثمّ بيزنطيا، وأخيرا جزيرة صقلّية، وبقية أقاليم أوروبا الجنوبية.

إذ تعتبر هذه الوثائق بذلك مصادرا من الطّراز الأوّل في تسليط الأضواء على كثير من الأحداث، والوقائع التّاريخية الهامّة بمصر، وبلدان الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، شأن حركة التّوسع المرابطي والموحدي بمختلف أقطار المغرب الإسلامي ؛ والحرب الصّليبية الأولى بالمنطقة ذاتها ؛ والمنافسات البحرية، واستفحّال ظاهرة القرصنة بحوض المتوسط ؛ وغيرها من القضايا الهامّة التّي ما تزال غامضة لدينا.

48- *GOITEIN (S. D), « The Cairo Geniza; As a source for the history of Muslim civilization ». In :* ***Studia Islamica,*** *Edited by Larose, (E), Paris, N° 3, T12, 1955, pp 81 - 83.*

49- حول عمق أواصر هذه الصّداقة المتينة، ينظر : ردّ البابا عن رسالة للنّاصر يطلب منه فيها، تعيّين مطران جديد لكنيسة مدينة عنّابة مترجمة، ومنشورة بكتاب العربي، (إسماعيل)، الأنف الذكر ؛ وكذلك : *FERAUD, « Bougie », Op.cit.*

50- الحموي، (شهاب الدّين أبي عبد اللّه ياقوت بن عبد اللّه الرّومي البغدادي) : **معجم البلدان،** دار صادر، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1995، الجزء 4، ص 390، عمود 2.